القدس

المدينة والحكاية

القدس

نحميها معاً... نستعيدها معاً...

مقدمة

أنها القدس مدينة السلام... نشيد الأحرار... وقبلة الثوار ... إنها المدينة التي استعصت على النسيان، تحملها الأذهان حلماً يكبر مع الزمن، وتحرسها الأهداب سوراً يهزم الوهن... إنها إيلياء التي جاء ذكرها في القديم، والقرية التي أمر الله بني إسرائيل أن يدخلوها سجداً، ما زالت تتربع على عرش القلوب حباً لا ينقطع، ما زالت الأرض المقدسة محوراً في الفكر ... في الوجدان ... في العمل ... شرفها يملأ الكون عطراً ... يختصر التاريخ والجغرافيا وكل علوم الدين والدنيا.

لم يسكن بيت المقدس قوم إلا وتزودوا من بهائها ما يباهون به الأمم، فمنذ أن وطئ اليبوسيون ترابها أَسَرَتهم، فاتخذوا لها من اسمهم اسماً، يبوس، ومنذ أن عرفها الكنعانيون، كرّسوها مدينة للسلام فعرفت بـ أور سالم، ثم أطلق الرومان عليها إسم جدهم إيليا، إلى أن زادها الله مجداً بصلاة سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم فيها صلاة تختصر قصة القداسة والرسالات إماماً بأنبياء البشرية جميعاً.

إنها بيت المقدس ... مسرى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ومعراجه إلى السماء، وقرة عينه، وعروسه المدن التي ذكرها وبيّن قدرها... إنها قبلة المسلمين الأولى، لا تُستقبل إلا بخير ولا تُذكر إلا بطهر، مهبط الملائكة ومحطّ البركة، وأرض المبدأ والمعاد، إليها تُشد الرحال، وبها العصمة من الدجال، وفيها تُكفَّر الذنوب وتضاعف الأجور، فيها المسجد الأقصى شقيق المسجد الحرام، بنته يد النبوة بعده بأربعين عاماً، وفيها حائط البراق أثر الرسول لحظة اتصال الأرض بالسماء، وفيها قبة الصخرة، وفيها أسوار من الطين تحرسها، وأجيال من البشر تحميها، وأديان موحدة تذكر فضلها! إنها أنفاس الليل والنهار في تعاقبهما على الأرض، وذاكرة الصيف والشتاء في تداولهما على الدنيا، إنها المدينة التي ترسم خريطة أمة، وتحكي حكاية صراع، وهي العاصمة المؤهلة دون غيرها لتبارك من أحبها، وتلعن من خانها!

مؤسسة القدس

القدس ساكنة القلوب

كلما ازدادوا حقداً ... فيكِ ازددنا حباً... يا قدس يا منبت عزتنا ... يا أمل نهضتنا ... يا نجوى الزمان لمن صدقوا عهد الله ... على رباك ينحني الجمال خاشعاً، ويبسم الفجر راكعاً.

القدس أكثر من أرض، وأعظم من مدينة، وأهم من عاصمة، إنها كل ذلك وأكثر، إنها جزء من عقيدة المسلمين، ورسالة المسيحين، ورسالة النبيين، ومنذ بدء النبوات والرسالات، القدس هي المزار والمنزل والمسرى والموضع المقدس، مقصد الرحال.

قصة القدس

القدس مدينة أنشأها وسكنها اليبوسيون من شعب كنعان في الألف الثالث قبل الميلاد، وتوافدت إليها الهجرات على مر العصور، فلم تخلُ من ذكرها مخطوطةٌ أثرية أو كتاب مقدس.

تعرضت القدس للغزو والتدمير على يد الفراعنة واليهود والآشوريين والبابليين والفرس واليونان والرومان إلى أن فتحها المسلمون صلحاً عام ٦٣٦م، لتستمر القدس في كنف الدولة الإسلامية إلى أن احتلها الصليبيون عام ١٠٩٩م ببحرٍ من الدماء سالت فيه دماء سبعين ألف قتيلٍ في ساحات الأقصى، وعاثوا فيها قرابة تسعين عاماً إلى أن تحرّرت على يد القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي. مع الحرب العالمية الأولى وسقوط الخلافة وقعت القدس بيد الانتداب البريطاني الذي سهّل قيام دولة صهيونية احتلت تحت ظل حرابه شطراً من المدينة عام ١٩٤٨، وطردت سكانها بمجازر لا تنمحي من الذاكرة المحزونة لهذه الأرض، وفي العام ١٩٦٧م اكتمل حول رقبتها الطوق إذ احتل الصهاينة كامل أجزائها فأعلنوها عاصمة لدولتهم وأطلقوا فيها يد الخراب.

القدس عروس المدائن

تتربع مدينة القدس في وسط فلسطين تقريباً بين البحرين الأبيض المتوسط والميت، لتنعم بريح البحر وروح الجبل، تحتضنها جبال خضراء تحميها من كل جانب، أهمها: جبل المكبر، وجبل الطور أو الزيتون، وجبل المشارف أو سكوبس، وجبل النبي صموئيل، وجبل صهيون، وجبل القطمون، وهي ترتفع عن سطح البحر المتوسط نحو ٧٥٠م، وعن سطح البحرالميت نحو ١١٥٠م.

يحيط المدينة القديمة سور منيع يبلغ ارتفاعه ٤٠ قدماً وعليه ٣٤ برجاً وله سبعة من الأبواب هي: باب الساهرة، وباب العامود أو باب دمشق، وباب الجديد، وباب الخليل أو باب يافا، وباب النبي داوود، وباب المغاربة، وباب الأسباط.

أهل القدس

منذ الألف الثالث قبل الميلاد سكنت القبائل السامية المهاجرة من شبه الجزيرة العربية فلسطين والقدس، فتركّز الكنعانيون في السهول، والعموريون
.

نزل نبي الله إبراهيم بالمدينة عام ١٨٠٥ ق.م ليجد فيها الملك اليبوسي الموحد العادل "ملكي صادق"، ليتعاقب على حكم المدينة بعدها عدد من الممالك، أما سكانها فبقي معظمهم من اليبوسيين والكنعانيين من محيطها، انضم إليهم لاحقاً الفلسطينيون الذين هاجروا لساحل فلسطين من بحر إيجة فأعطوها اسمهم، وساكنهم فيها من اختار البقاء والاستقرار من أصحاب الممالك التي حكمتها من يهود ويونان وبيزنطيين. بعد الفتح الإسلامي أمتها الجموع تشد الرحال لمسجدها المبارك، فآثر بعضهم لما رآها أن لا يفارقها أبداً، فانضم إلى سكانها خليط من الناس من عرب وأكراد وأفارقة وأتراك وفرس ذابوا في نسيجها وزادوا في بهائها.

القدس في الديانات الثلاث

القدس عاصمة القداسة في العالم، فهي مدينة يقدسها ثلثا سكان الأرض، وهي المدينة الوحيدة التي ترتبط بها الرسالات السماوية الثلاث: اليهودية، والمسيحية والإسلام.

هاجر ابراهيم الخليل من أور إليها، ومنها هاجر آل يعقوب إلى مصر نحو سنة ١٦٥٦ ق. م، وعبر موسى البحر إليها لكنه توفي عام ١٢٢٧ ق.م قبل أن يدخلها، واتخذها نبي الله داوود عاصمة لدولته سنة ١٠٠٤ ق.م وخلفه عليها ابنه سليمان، وكانت المدينة مسرحاً لدعوة سيدنا زكريا ويحيى، ومن بعدهما المسيح عليه السلام، ومنها عُرِجَ بمحمد صلى الله عليه وسلم إلى السماء ليلة الإسراء والمعراج.

قداسة المدينة لدى اليهود لم تتجلَّ بمعلم تاريخي، إذ أن آخر اتصال لهم بها كان عام ١٣٥م بعد أن أخمد الإمبراطور هادريان ثورتهم وحرث المدينة فلم يترك لهم فيها حجراً على حجر، وغير اسمها إلى إيليا. تقوم في المدينة المقدسة عشرات الكنائس المسيحية أهمها على الإطلاق كنيسة القيامة التي هي قبلة حج المسيحيين، وفي كل زاوية فيها تشمخ المآذن والقباب، وتتربع المدارس والتكايا، ويتوجها المسجد الأقصى المبارك الذي يطل عليها ببهائه كأنما ليشرف على كل هذه القداسة.

قداستها إسلامياً

يمّم المسلمون شطرها قبل أن يروها، وزارها نبيّهم وشرّفها الله بزيارته، فسكنت فيهم قبل أن يسكنوها، وهوَت إليها أفئدتهم. هي في وجدانهم القبلة الأولى، وأرض الإسراء والمعراج، وفيها العصمة من الدجال، وفيها الطائفة المنصورة إلى يوم القيامة، وقد خصها الله تعالى بالبركة إذ قال "ونجيناه ولوطاً الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين" الأنبياء ٧١. وأسماها الأرض المقدسة، إذ قال على لسان موسى "يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة" المائدة ٢١، فكان لِزاماً أن يشتاقوا لفتحها بمجرد انطلاق دعوتهم إلى الآفاق، وأن يخِفّوا لزيارتها والتملي ببهائها وعظمتها.

عمر يتسلم القدس

تحقق النصر المؤزّر للمسلمين في اليرموك عام ١٥هـ - ٦٣٦م ففَتَحت مدائن الشام أبوابها للإسلام الواحدة تلو الأخرى، وتولى قائد جيوش المسلمين في الجبهة الرومية أبو عبيدة بن الجراح حصار القدس عدة أشهر أملاً في أن يدخلها صلحاً ولا يريق فيها الدماء، فأبى أهلها إلا أن يبرموا صلحاً يناسب شرف المدينة، فخفّ إليها خليفة المسلمين عمر بن الخطاب ليبرم في الجابية بسهل حوران العهدة العمرية التي حفظت للمسيحيين كنائسهم وصوامعهم ومقدساتهم وأملاكهم وتجارتهم فأصبحت دستور تآخي سكان المدينة تحت حكم الإسلام. ويدخل الخليفة المدينة فيُطبّق ما عاهد عليه أهلها، ويأبى الصلاة في كنيسة القيامة ليحفظها لأهلها، ويخرج ليصلي قرب مدخلها حيث يقوم اليوم مسجد سمي باسمه يشترك في جداره مع الكنيسة.

مسجد
عمر بن الخطاب
Mosque of Omar
FOR PRAYERS ONLY

المسجد الأقصى قلب المدينة المقدسة

أول ما بحث عنه المسلمون عند دخولهم المدينة كان البقعة الأطهر والأحب إلى قلوبهم، البقعة التي صلى فيها نبيهم إماماً بالأنبياء، فأرشدتهم إليها الصخرة التي منها بدأ رحلته للسماء، فعمروا تلك التلة الطاهرة التي كانت خراباً، وعليها أعادوا بناء مسجدهم الأقصى. ١٤٤ دونماً مربعاً هي مساحة المسجد التي أصبحت ساحةً للبهاء يتسابق فيها الخلفاء والمعماريون، وساحة للقداسة إذ فيه تطلب البركة، وفيه تضاعف الأجور، ومن أهل بحج أو عمرة منه إلى المسجد الحرام غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ووجبت له الجنة، الصلاة فيه بخمسمائة صلاة، وهو أحد ثلاثة مساجد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن لا تشد الرحال إلا إليها: المسجد الحرام والمسجد الأقصى والمسجد النبوي الشريف.

عن ميمونة مولاة النبي صلى الله عليه وسلم قالت: يا نبي الله أفتنا في بيت المقدس فقال صلى الله عليه وسلم: "أرض المنشر والمحشر، ائتوه فصلّوا فيه، فإن لم تأتوه وتُصلّوا فيه فابعثوا بزيت يسرج قناديله".

قداستها مصدر تعاستها

قداسة المدينة كانت مصدر تعاستها، فأحلام بعض من يُقدس هذه المدينة لم تكن تتسع لغيرهم فيها، فأصبحت القدس مركزاً لنزاع السيطرة، ولم يكن أصحاب تلك الأحلام يأبهون لهوية سكان المدينة الذين اعتُبِروا دوماً مجرد عائق أمام الحلم!

البابا أوربان الثاني يعلن حرباً مقدسة لإنقاذ القبر المقدس "كنيسة القيامة" من المسلمين الـ"وثنيين"، ويَعدُ جند هذه الحرب بالغفران، فانطلقت سلسلة من حملات القتل والدمار تقصد القدس حتى احتلتها وقتلت أمنها وسلمها، وأبدلته ببحرٍ من دماء سالت من سبعين ألفٍ من سكان المدينة مسيحييها ومسلميها، وسبحت خيولهم في الدماء في ساحات المسجد الأقصى.

باب الرحمة يقف اليوم شاهداً على هذه الذاكرة، فهو الذي أُغلق بأمر السلطان الناصر صلاح الدين لحماية المدينة والمسجد من أي غزو محتمل، لأنه أول ما يواجه القادم إلى المدينة من جهتها الشرقية، ومنه ومن الأبواب الجنوبية دخلت طلائع الدمار إليها.

السلام في ظل الإسلام

تبعثر السلام الذي ضم تحت جانحه المدينة خمسمائة من السنين، وانتهى العصر الذي يجاور فيه المسجد الكنيسة، بل انتهى العصر الذي يسمح فيه للمساجد بالوجود، فالمسجد الأقصى ذابت ملامحه، المسجد القبلي صار مقراً لفرسان الصليب، والمصلى المرواني صار اصطبلاً لخيلهم، وقبة الصخرة صارت "هيكل السيد العظيم"، وضاع عن المدينة عهد عمر.

التحرير من الصليبيين

لكن هذه الأمة أمة حية لا تموت، والقدس هي قلبها الذي يبقى نابضاً فيها حتى وهو رهن القيود، مشروع التحرير يبدأ من الموصل، والجهد المضني الدؤوب يتواصل، يرفع عماد الدين زنكي لواء هذا المشروع فتسقط على يديه الرها، أولى الممالك الصليبية في عقد الاحتلال، ويحمل من بعده اللواء ابنه نور الدين محمود ثم صلاح الدين الأيوبي الذي تسلم اللواء من بعده ونجح في ضم مصر إلى المشروع التحرري عام ١١٧١م، ليتوج المشروع عام ١١٨٧م في حطين، ويعود الاطمئنان والسلام لينشر جناحه على القدس من جديد.

الاحتلال الجديد

مرة أخرى تقع القدس بأيدي المحتلين، فسقوط القلب نتيجة حتمية لضعف الأمة وتفكّكها... الانتداب البريطاني يحل على القدس، واللورد البريطاني اللنبي أمام قبر صلاح الدين في دمشق ليقول له "ها قد عدنا يا صلاح الدين"... أسابيع قليلة على الانتداب ويصدر وعد بلفور بدولة قومية لليهود على أرض فلسطين... تُقسّم فلسطين ومعها القدس، وتجري دماء الفلسطينيين في مذابح وحشية تنفذها العصابات الصهيونية بغطاء بريطاني، وفي ١٦- ١٢- ١٩٤٩م يُعلن رئيس الوزراء الإسرائيلي ديفيد بن غوريون بأن القدس عاصمة الدولة العبرية اعتباراً من مطلع العام ١٩٥٠، وهكذا تنتقل القدس من الانتداب البريطاني إلى الاحتلال الإسرائيلي، الذي يكرس سيطرته على كامل المدينة في ٥-٦-١٩٦٧م...فمتى تستعيد الأمة عزتها وتعيد للقدس حريتها؟

مصادرة الحقوق

المحتلون يرنون إلى انتزاع المدينة من سكانها، وسلخها عن أمتها وتاريخها وحضارتها، فيعتمدون سياسة "الترانسفير الهادئ" لاقتلاع سكانها، والاستيلاء على أملاكهم من خلال إجراءات متكاملة تُجرّد الفلسطينيين من حقوقهم الإنسانية.

تتكامل هذه الإجراءات في استراتيجية تُصادِر وتضم وتُجرِّف الأراضي، وتبني المستوطنات مكانها، وتُدمر المنازل وتُهجر أهلها منها، وتعتدي على السكان مادياً ومعنوياً، وتُقيّد حقوقهم في التنقل والصحة التعليم وغيرها، فضلاً عن الانتهاك المتكرر للمقدسات.

تهويد التراث-حائط البراق

تهويد المدينة ومقدساتها يستمر، واليهود يضعون يدهم على حائط البراق، ويطلقون عليه اسم "حائط المبكى"، رغم أن لجنة دولية شُكّلت في ١٤-١-١٩٣٠م للنظر في ملكيته وقداسته لدى المسلمين واليهود بيّنت ملكية المسلمين للمكان الذي ربط فيه محمد صلى الله عليه وسلم دابته ليلة الإسراء والمعراج، كما قصر زيارة اليهود على الوجه الذي كان بداية الانتداب، أي بلا أبواق أو أصوات. بمجرد احتلالهم للمدينة لم يراعي السادة الجدد أي حق، فسيطروا على الحائط وهدموا حارة المغاربة المحيطة به وحولوا مساحتها إلى ساحة للصلاة.

تهديد المقدسات

أعمال الحفر تحت المسجد الأقصى تتواصل حتى باتت أساساته في خطر، أما محاولات الاعتداء والاقتحام ففي تزايد مستمر... فهو زمن إقامة الهيكل المزعوم في تقويمهم، فإما أن ينهار المسجد من الداخل بفعل الحفريات التي امتدت إلى الطبقات التحتية للمسجد القبلي ولقبة الصخرة الشريفة، وإما أن يجري هدمه بعبوات ناسفة، أو يجري اقتحامه لإقامة "الهيكل الثالث" على أنقاضه، أو على الأقل لإغلاق جزء منه وتخصيصه لصلاة اليهود.

انتزاع الممتلكات

مشروع اقتلاع القدس يسير على ركائز ثلاث، أولاها انتزاع أملاك أهلها الأصليين وتضييق عيشهم... ففي كل يوم إجراء جديد لتفريغ المدينة من أهلها الشرعيين، تدميرٌ وهدمٌ للعقارات المملوكة لهم، حلٌ لمؤسسات الوجود الفلسطيني في القدس، مصادرةٌ للأراضي وتجريفها، ربطٌ لاقتصاد القدس بعجلة الاقتصاد الإسرائيلي، طمسٌ للمعالم التاريخية العربية، تغيير للأسماء، توسيعٌ لحدود بلدية القدس، تقليص مساحات البناء المتاحة للفلسطينيين... ثم يأتي دور الضرائب الباهظة التي تُفرض على الفلسطيني، في مقابل إهمال البنية التحتية التي تخدمه وعدم منحه تراخيص بناء أو عمل، ورفض جمع شمل العائلات الممزقة بفعل الاحتلال وسياساته...

جحيم يريدونها أن تكون حياة الفلسطيني في القدس، فإما أن يغادر أو يكتوي بنارها، لكنها القدس وأي مدينة في الأرض تشبهها؟

الاستيطان

ثانيها الاستيطان، فلا بد لما يُصادَر أن يُملأ بأسيادٍ جدد يعطون المدينة وجهها الجديد...

بعد احتلال القدس بكاملها بعد حرب ١٩٦٧م سعت حكومات الاحتلال المتعاقبة –بمختلف اتجاهاتها– إلى تكثيف عمليات الاستيطان في القدس وحولها، فأسّست ثلاثة أطواق من الوجود اليهودي في القدس، الأول داخل البلدة القديمة متمثلاً بالحي اليهودي (حارة الشرف قبل الاستيلاء عليها)، وما تستولي عليه من أملاك أخرى، والثاني طوق من المستوطنات المتداخلة مع الأحياء الفلسطينية في المحيط القريب للبلدة القديمة هي نيفيه يعقوب بسغات زئيف والتلة الفرنسية والجامعة العبرية وتالبوت التي تمنع بوجودها أي تواصل جغرافي بين الأحياء الفلسطينية وتخنق آفاق توسع تلك الأحياء، وبطوق ثالث على الجبال الخارجية للقدس يضم راموت التي تفصل القدس عن رام الله شمالاً ومعاليه أدوميم التي تفصل القدس عن غور الأردن شرقاً وهارحوما التي تفصلها عن بيت لحم إلى الجنوب وجيلو التي تفصلها عن بيت جالا إلى الجنوب الغربي.

تزيد المواقع الاستيطانية في القدس وحولها حالياً عن ثلاثين موقعاً، تحاول تأمين الغالبية السكانية لليهود على الفلسطينيين لكن المؤشرات تقول أنها لم تصل إلى كل ما تريد حتى اليوم.

الجدار

وثالثها جدار يحزّ في صدرها يقص منها ما يشاء ويضيف ما يشاء، يشوّه وجهها ويخنق أرضها وسكانها...
جدار يترك آثاراً كارثية على الشعب الفلسطيني ومستقبله، فهو فضلاً عن أنه يلتهم أرزاق الفلسطينيين ومزروعاتهم، فإنه يقسّم آلاف العائلات الفلسطينية، ويُدمر مستقبلها فيحرم أبناءها من المؤسسات التي يتعلمون فيها وأفرادها من المؤسسات التي يتعالجون فيها، ويُحول أحياء القدس وقراها إلى جزرٍ معزولة غير قادرة على الحياة أو على الاتصال ببعضها البعض.

المدينة تئن تحت الاحتلال

في كل يوم يشتد الحصار عليها أكثر، الاحتلال مصمم على أن ينزع عنها هويتها، هو يعمل ليل نهار كي يدخلها في عصره المظلم.. انسحب من غزة فسولت له نفسه أن القدس هي الثمن البخس لهذا الانسحاب، ومنذ أن انسحب أعمل فيها الخطط والقرارات والإجراءات، لتصبح الحياة فيها أصعب يوماً بعد يوم.

والمدينة ترزح تحت هذا الحمل الثقيل، تئن تحت وطأة التراث الغريب الذي يحاول أن يزرع نفسه فوقها، تراث عماده كتل البناء المتطاول الذي تصطدم به كل عين تنساب على مشهد القدس...

المدينة باقية بصمود سكانها

لكن المدينة صامدة بصمود أهلها، يواجهون المحتل بكل العزم وبكل الصبر أمام آلة تستخدم كل القمع وكل الدمار، صامدة بدعم الخيرين من أمتها الحالمين بعودتها وعزتها وحريتها، يمدونها عزماً من عزمهم، ويمدون سكانها قوة من قوتهم.

وبحفاظهم على هويتهم

ستبقى عصية على الاقتلاع ما دامت مسكونة بقوم لا يسلون هويتهم وإيمانهم، ستبقى عصية على الاقتلاع ما دامت تسكن في قلوب الملايين من أهلها، فحتى لو غير الاحتلال وجهها في حقبة حالكة من الزمن، فلن يقوى على تغيير وجهها المشرق الذي يسكن تلك القلوب والضمائر...

بانتظار فجرٍ جديد

فهي القدس التي ليس لقصتها نهاية، وليس لقضيتها ثمن، وهي التي تتسابق المهج لتفديها، إنها المدينة الجامعة التي لا يملك أن يتاجر بها أحد من الناس وإن حاول، لأنها ملك الإنسانية كلها، وتراث الإنسانية أغلى من أن يطغى عليه محتل أو يسرقه مغتصب، ولأنها وديعة السماء، وحبيبة السماء لا يمكن أن يُذلها مخلوق مهما بلغ علواً في الأرض وفساداً.

طبتِ يا قدس مع كل قطرة دم تُسكب على أرضكِ، ومع كل صرخة ألم تتردد في جنباتكِ... طبتِ يا قدس شعلةً تشقّ ظلام الظالمين وتُحطّم يأس اليائسين.

القدس

المدينة والحكاية

إنتاج مؤسسة القدس
قسم الإعلام والأبحاث

٢٠٠٥

تصميم وطباعة
GOLDEN VISION
٠١-٣٦٢٩٨٧

لبنان - بيروت - شارع الحمرا، بناية ساروﻻ، ط١١
العنوان البريدي: بيروت - الحمرا ١١٣/٥٦٤٧
هاتف: ٠٠٩٦١-١-٧٥١٧٢٤ فاكس: ٠٠٩٦١-١-٧٥١٧٢٦

www.alquds-online.org
institution@alquds-online.org
alquds_institution@yahoo.com